(٣)

أولوية الكيف على الكم

obeikandl.com

obeikandl.com

أولوية الكيف على الكم

من الأولويات المهمة شرعًا: تقديم الكيف والنوع على الكم والحجم، فليست العبرة بالكثرة في العدد، ولا بالضخامة في الحجم: إنما المدار على النوعية والكيفية.

لقدذم القرآن الأكثرية إذا كان أصحابها ممن لا يعقلون أو لا يعلمون أو لا يؤمنون أو لا يشكرون: كما نطقت بذلك آيات وفيرة من كتاب الله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

في حين مدح القرآن القلَّة المؤمنة العاملة الشاكرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٢٦]، ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

ولهذا ليس المهم أن يكثر عدد الناس، ولكن المهم أن يكثر عدد المؤمنين الصالحين منهم.

يذكر كثيرون الحديث النبوي: «تناكحوا تناسلوا تكثروا فإني مكاثر بكم الأُمم»[١]، ولكن الرسول الكريم لن يباهى الأمم بالجهلة ولا بالفسقة ولا بالظالمين، إنما يباهي بالطيبين العاملين النافعين.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»[٢] دلالة على

---

(١) رواه أبو داود والنسائي عن معقل بن يسار، كما في صحيح الجامع الصغير (٢٩٤٠).

(٢) متفق عليه عن ابن عمر. انظر اللؤلؤ والمرجان (١٦٥١).

ندرة النوع الجيد في الناس، كندرة الراحلة الصالحة للسفر والركوب والحمل في الإبل، حتي إن المائة لا يكاد يوجد فيها واحدة من هذا النوع.

والتفاوت في بني الإنسان أكثر منه في جميع الفصائل والأنواع الأخري من الحيوان وغيره. حتي جاء في الحديث: «ليس شيء خيرًا من ألف مثله إلا الإنسان»(١).

إننا مولعون بالكم وبالكثرة في كل شيء وإبراز الأرقام بالألوف والملايين، ولا يعنينا كثيرًا ما وراء هذا الكثرة، ولا ماذا تحمل هذه الأرقام.

لقد أدرك الشاعر العربي الجاهلي أهمية النوع على الكم فقال:

تعيرنا أنَّا قليل عديدنا ... فقلت لها: إن الكرام قليل

وما ضرَّنا أنَّا قليل، وجارنا ... عزيز، وجار الأكثرين ذليل

والقرآن ذكر لنا كيف انتصر جنود طالوت، وهم قلَّة على جنود جالوت، وهم كثرة: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ، فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلا قَلِيلاً مِّنْهُمْ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُواْ لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُواْ اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾... إلى أن قال: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥١].

وذكر لنا القرآن كيف انتصر الرسول وأصحابه في بدر، وهم قلَّة على المشركين وهم كثرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [ال عمران: ١٢٣]، ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال: ٢٦].

علي حين كاد المسلمون يخسرون المعركة في حنين، إذ نظروا إلى الكم لا الكيف وغرَّتهم الكثرة، وأهملوا القوة الروحية، والحيطة العسكرية، فدارت الدائرة عليهم

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والضياء عن سلمان، وحسَّنه في صحيح الجامع الصغير (٥٣٩٤).

أولاً، حتي يتعلموا وينتبهوا أو يتوبوا، ثم فتح الله عليهم وأيَّدهم بجنود لم يروها.

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ* ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

ولقد بيَّن القرآن أن الإنسان إذا اجتمع له الإيمان وقوة الإرادة المعبَّر عنها بالصبر، يمكن أن تتضاعف طاقته إلى عشرة أضعاف أعدائه ممن لا يملك إيمانه وإرادته: يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ، إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ، وَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وهذا في حالة القوة، أما في حالة الضعف فيمكن أن تكون طاقته ضعف طاقة خصمه، كما أشارت إلى ذلك الآية اللاحقة في سورة الأنفال: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا، فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ، وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

المدار إذن على الإيمان والإرادة، لا على العدد والكثرة.

ومَن قرأ سيرة الرسول ﷺ: علم أن عنايته كانت بالنوع لا بالكم.

ومَن قرأ سير أصحابه وخلفائه، رأى ذلك بجلاء ووضوح أيضًا.

بعث عمر بن الخطاب عمرو بن العاص لفتح مصر، ومعه أربعة آلاف جندي فقط، ثم طلب منه مددًا، فأمده بأربعة آلاف، ومعم أربعة قال عمر: كل واحد منهم بألف، واعتبر المجموع اثنى عشر ألفًا!. ولن يُغلب اثنا عشر ألفًا من قِلَّة.

لقد كان عمر مؤمنًا بأن العبرة بنوع الرجال وقدراتهم ومواهبهم، لا بأعدادهم وأحجامهم.

روي عنه أنه جلس يومًا مع بعض أصحابه في دار رحبة، فقال لهم: تمنوا، فقال أحدهم: أتمنى أن يكون لي ملء هذه الدار دراهم من فضة أنفقها في سبيل الله،

وتمنى آخر أن يكو له ملؤها ذهبًا ينفقه في سبيل الله، أما عمر فقال: لكني أتمنى ملء هذه الدار رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، فأستعملهم في سبيل الله.

وفي عصرنا بلغ عدد المسلمين في العالَم، ما يجاوز المليار وربع المليار من البَشر. ولكنهم للأسف الشديد كما وصفهم الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أُفق، كما تداعى الأكلة إلي قصعتها»، قالوا: أمِن قِلَّة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

لقد بيَّن هذا الحديث أن الكثرة وحدها لا تغني، إذ كانت منتفخة من الخارج، واهنة من الداخل، كما في المراحل «الغثائية» من حياة الأُمة، التي تتصف الأُمة فيها بمايتصف به الغثاء من الخفة، وعدم التجانس، وفقدان الهدف والطريق، كماهو شأن غُثاء السيل.

العناية إذن يجب أن تتجه إلى الكيف والنوع لا مجرد الكم. والمقصود بـ «الكم» هنا: كل ما يُعبِّر عن مقدار الجانب المادي وحده، من كثرة العدد، أو سعة المساحة، أو كبر الحجم، أو ثقل الوزن، أو طول المدة، أو غير ذلك ما يدخل في هذا المجال.

وما قلناه في كثرة العدد نقوله في الأُمور الأُخرى.

فالإنسان مثلاً لا يُقاس بطول قامته، أو قوة عضلاته، أو ضخامة جسمه، أو جمال صورته، فهذه كلها خارجة عن جوهره وحقيقة إنسانيته، فما الجسم - في النهاية - إلا غلاف الإنسان ومطيته، أما حقيقة الإنسان فما هو إلا العقل والقلب.

وقد وصف الله تعالي المنافقين بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

كما وصف عادًا على لسان نبيه هود بقوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود، عن ثوبان، كما في صحيح الجامع الصغير (٨١٨٣).

ولكن هذه البسطة في الخلق جعلتهم يغترون ويستكبرون كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وفي الحديث الصحيح: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، فلا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»[(١)].

وصعد ابن مسعود يومًا شجرة، فظهرت ساقاه، وكانتا دقيقتين نحيلتين، فضحك بعض الصحابة من ذلك، فقال النبي ﷺ: «أتضحكون من دقة ساقيه؟ والذي نفسي بيده: لهما أثقل في الميزان من جبل أُحُد»[(٢)].

ليس المهم إذن ضخامة الجسم، إذا لم يكن يسكنه عقل ذكي، وفؤاد نقي، وقديمًا قال العرب: «ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل».

وقال حسان بن ثابت يهجو قومًا:

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر ... جسم البغال وأحلام العصافير!

ليس معني هذا: أن الإسلام لا يقيم وزنًا لصحة الجسم وقوته. كلا، فهو يهتم بذلك غاية الاهتمام. وقد مدح الله طالوت بقوله: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. وفي الصحيح: «إن لبدنك عليك حقًا»[(٣)]، «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»[(٤)]، ولكنه لا يجعلها معيار الفضل.

وكما أن ضخامة الجسم وقوته ليست هي مقياس الرجولة، ولا معيار الفضل في الإنسان، فكذلك جمال الوجه وحسن الصورة.

وفي الحديث: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[(٥)].

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة، كما في اللؤلؤ والمرجان (١٧٧٣).

(٢) صح هذا الحديث من رواية علي، رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ،ورجالهم رجال الصحيح، غير أم موسى وهي ثقة، ومن رواية ابن مسعود نفسه رواه أحمد وأبو يعلى البزار والطبراني من طرق، ومن رواية قرة بن إياس رواه البزار والطبراني ورجالهما رجال الصحيح (مجمع الزوائد: ٩/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو.

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة (٢٥٦٤).

وقد مدح أحد الشعراء عبد الملك بن مروان بقوله:

يأتلق التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب!

فلام الشاعر، لأنه مدحه بما يشبه مدح الغيد الحسان. وقال له: هلا قلت فيّ ما قاله الشاعر في مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهاب من الله ... تجلَّت بنوره الظلماء

حكمه حكم قوة ليس فيه ... جبروت منه ولا كبرياء

أجل.. إنما يُقاس الرجال بما في رؤوسهم من علم، وما في قلوبهم من إيمان، وما يثمره الإيمان من عمل، على أن العمل في نظر الإسلام لا يُقاس بحجمه ولا عدده، إنما يُقاس بمدي إحسانه وإتقانه، وإحسان العمل في الإسلام ليس نافلة، بل هو فريضة كتبها الله على المؤمنين، كما كتب عليهم الصيام وغيره من الفرائض.

يقول الرسول ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتهم فأحْسِنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»(١).

والأصل في كلمة «كتب»: أنها تفيد الوجوب والفرضية.

ويقول: «إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يُحسن»(٢).

فكما أن الله تعالى كتب الإحسان في العمل وأوجبه، فهو يحبه ويحب صاحبه.

بل إن القرآن لا يكتفي من المكلَّفين بعمل «الحسن»، بل يدعوهم إلى عمل «الأحسن». قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُواْ أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥].

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

بل القرآن يأمر بجدال المخالفين بالتي هي أحسن: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويأمر بدفع السيئة بالتي هي أحسن: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

---

(١) رواه مسلم من حديث شداد بن أوس (١٩٥٥).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن كليب، وحسَّنه في صحيح الجامع الصغير (١٨٩١).

وينهى عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

بل جعل القرآن الغاية من خلق الأرض وما عليها، وخلق الموت والحياة، وخلق السموات والأرض وما بينهما: ابتلاء المكلفين: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

كما نطقت بذلك عدة آيات في كتاب الله: [هود: ٧، والملك: ٢، والكهف: ٧]، فكان التسابق بينهم ليس بين الحسن والسيئ، بل بين الحسن والأحسن. وينبغي أن يكون همّ الإنسان المؤمن التطلع أبدًا إلى الأحسن والأرفع. وفي الحديث: «إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن»(١).

وفي حديث جبريل المشهور تفسير «الإحسان» حين سأل عنه جبريل فقال النبى عليه الصلاة والسلام: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢).

وهذا تفسير لمعنى الإحسان في العبادة، وأنه يعني المراقبة والإخلاص لله تعالى، فالأعمال المقبولة عند الله تعالى لا ينظر إلى صورتها ولا إلى كَمّها، بل إلى جوهرها وكيفها. فكم من عمل مستوف لظاهر الشكل، ولكنه فاقد للروح الذي يهبه الحياة. ولذا لا يعتدّ به الدين، ولا يضعه في ميزان القبول.

يقول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

ويقول الرسول ﷺ في شأن الصوم: «مَنْ لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»(٣)، ويقول: «رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر»(٤).

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه، باب: «وكان عرشه على الماء» (الفتح: ١٣/ ٤٠٤).

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم (٥)، ورواه مسلم من حديث عمر رقم (٨).

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الصوم، كما رواه أصحاب السنن الأربعة.

(٤) قال المنذري في الترغيب: رواه ابن ماجه واللفظ له، والنسائي، وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم =

يقول تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، ويقول الرسول الكريم: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلي ما هاجر إليه»(١).

ولهذا عنى علماء الإسلام بهذا الحديث، وبدأ به البخاري جامعه الصحيح، واعتبره بعضهم ربع الإسلام، وبعضهم ثلث الإسلام، لما للنية من أهمية في قبول الأعمال، واعتبروه ميزانًا لباطن الأعمال، كما أن حديث: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»(٢) - أي مردود على صاحبه - يُعتبر ميزانًا لظاهر العمل.

وسُئل أبو عليّ الفضيل بن عياض عن «أحسن العمل» في قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧] فقال: أحسن العمل : أخلصه وأصوبه. قيل له: ما أخلصه وما أصوبه؟ فقال: إن الله لا يقبل العمل ما لم يكن خالصًا صوابًا، فإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا: لم يُقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا: لم يُقبل، وخلوصه: أن يكون لله، وصوابه: أن يكون على السُّنَّة.

وهذا معنى أحسن العمل في أمر الدين والتعبد، وأما الإحسان في أمرالدنيا، فهو الوصول به إلى درجة الجودة التي ينافس فيها غيره، بل يتفوق عليه، فلا مجال في الحياة إلا للمتقين.

ومن الأحاديث النبوية التي لها دلالة في هذا المقام: ما رواه مسلم وغيره.

عن أبى هريرة مرفوعًا: «مَن قتل وزغًا في أول ضربة كتبت له مائة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك»(٣).

= وقال: صحيح علي شرط البخاري، ولفظهما: «رُبَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورُب قائم حظه من قيامه السهر». وقد وافق الذهبي الحاكم وليس في روايته «العطش»، وهو في صحيح ابن خزيمة بتحقيق الأعظمي: ٣/ ٢٤٢ برقم (١٩٩٧).

(١) متفق عليه عن عمر بن الخطاب، وهو أول حديث في صحيح البخاري.

(٢) رواه مسلم عن عائشة بهذا اللفظ، وهو متفق عليه بلفظ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ».

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة - كما في صحيح الجامع الصغير (٢٤٦٠). وانظر كتابنا «المنتقى من الترغيب والترهيب»، وتعليقنا على الحديث (١٨١١).

فالحديث يرشد إلى أهمية إتقان العمل وحسن أدائه ولو كان في أمر صغير كقتل الوزغة (ما يسميه العامة: البُرْص)، فهذا من إحسان القتل: «فإن قتلتم فأحسنوا القتلة». وفي القتل السريع إراحة للمقتول أيًا كان.

وكما لا تُقاس الأعمال بكمها وحجمها، كذلك لا تُقاس أعمار الناس بطولها.

فقد يعمَّر الإنسان عمرًا طويلاً، ولكن لابركة فيه. وقد لا يطول عمره، ولكنه حافل بأعمال الخير، وخير العمل.

وفي هذا يقول ابن عطاء الله في حكمه: رُبَّ عمر اتسعت آماده، وقلَّت أمداده، ورُبَّ عمر قليلة آماده، كثيرة أمداده! من بورك له في عمره، أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى، مالا يدخل تحت دوائرالعبارة، ولا تلحقه الإشارة!

وحسبنا أن النبي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة - هي كل زمن البعثة - بارك الله في حياته فأسس أعظم دين، وربَّي أفضل جيل، وأنشأ خير أُمة، وأقام أعدل دولة، وانتصر علي الوثنية الكافرة، واليهودية الغادرة، وورَّث أُمته - بعد كتاب الله - سُنَّة هادية، وسيرة جامعة.

وأبو بكر رضي الله عنه في سنتين ونصف: استطاع أن يسحق المتنبئين الكذَّابين، ويعيد المرتدين إلى حظيرة الإسلام، ويجندهم في فتح فارس والروم، وأن يؤدب مانعي الزكاة، ويحفظ للفقراء حقوقهم التي فرض الله لهم في أموال الأغنياء، ويسجل التاريخ أن الدولة الإسلامية هي أول مَن قاتل من أجل حقوق الفقراء.

وعمر بن الخطاب في عشر سنوات : فتح الفتوح في الخارج، وأرسى قواعد دولة العدل والشورى في الداخل، وسنَّ سُنَنًا حسنة لمن بعده «أوليات عمر»، ورسَّخ دعائم الفقه الجَماعي، وخصوصًا فقه الدولة، القائم علي اعتبار المقاصد، والموازنة بين المصالح، والتكافل بين الأجيال، وجرَّأ الناس علي النُّصح للحاكم ونقده: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها» مع زهد في الدنيا، وقوة في الحق، وتحقيق للعدالة والمساواة بين الناس جميعًا، إلى حد الاقتصاص من ولاة الأقاليم وأبنائهم.

وعمر بن عبد العزيز في ثلاثين شهرًا (هي كل مدة خلافته): أحيا الله به من سنن العدل والهدى، وأمات به من بدع الجور والضلالة، ورد من المظالم، وأقر من الحقوق: ما أعاد للناس الثقة بالإسلام، فأمنت الأنفس من خوف، وطعم الناس من جوع، وانتشر الرخاء، حتي أصبح صاحب المال يهمه: أين يضع زكاته، فقد أغنى الله الناس.

والإمام الشافعي عاش أربعًا وخمسين سنة - قمرية - (١٥٠-٢٠٤هـ) وخلَّف وراءه هذه الكنوز العلمية الجليلة الأصيلة.

والإمام الغزالي عاش أربعًا وخمسين سنة (٤٥٠-٥٠٥هـ)، وترك للأُمة هذه الثروة العلمية المتنوعة الهائلة.

والإمام النووي عاش خمسًا وأربعين سنة (٦٣١-٦٧٦هـ) ترك فيها تراثًا نفع الله به المسلمين كافة: في الحديث وفي الفقه، من الأربعين النووية في الحديث إلى شرح مسلم، ومن المناهج في الفقه إلى روضة الطالبين والمجموع.. وفي غيرها نجد له تهذيب الأسماء واللُّغات.

والأئمة الآخرون مثل: ابن العربي والسرخسي وابن الجوزي وابن قدامة والقرافي وابن تيمية وابن القيم والشاطبي وابن خلدون وابن حجر وابن الوزير وابن الهمام والسيوطي والدهلوي والشوكاني وغيرهم ملأوا الأرض علمًا وفضلاً.

إن مِنَ الناس مَنْ يموت قبل موته، وينتهي عمره وهو محسوب علي الأحياء. ومنهم مَن يحيا بعد موته، ويخلّف من صالح الأعمال، أو نافع العلم، أو صالح الذُرِّية والتلاميذ: ما يضيف إلى عمره أعمارًا تطول وتطول.

* * *